

مِئَوِيَّةُ المَسِيحِ مُحِبِّ البَشَرِ

مائة مقالة من الأب صفرونيوس إلى الأب ثيئودوروس

www.coptology.com



مئوية المسيح محب البشر

مائة مقالة من الأب صفرونيوس

إلى الأب ثيئودوروس

٢٠١٢

مائة مقالة

عن المسيح محب البشر

إلى

الأب ثيئودوروس

مقدمة

تسألني أيها العزيز ثيئودوروس – يا عطية الله بالحق – عن محبة المسيح، وأنت لا تريد أن تلقي بي في هذا البحر الذي لا حدود له ولا ندري عمقه؛ لأن الأبدية سوف تكون هي هذا العمق الذي لا قرار له؛ لأننا عندما نظن أننا وصلنا إلى الياء (الأوميجا Ω)، فإننا نجد أنفسنا أننا لا نزال في البداية؛ لأنه في حقيقة الأمر لا توجد بداية ولا نهاية؛ لأن هذه المقاييس خاصة بالمنظورات وبما هو محدود.

والآن عليَّ أن أطلب نعمة الله الوافرة لكي أقترب من هذا البحر الهائل الذي يفيض من جوهر الثالوث ويغرِق، أي يملأ كل الكائنات حسب حدود طبعها.

إنني أطلب معونة الروح المعزِّي لكي ينير قلبي؛ لأن معرفة أمور الله بدون روح الله، هي عطب كبير ودمار للحياة وهلاك لقوى الحياة فينا، ولذلك صرخ الرسول وقال: "من هو كفؤ لهذه الأمور" (راجع ١كور ٢: ١١ – ١٦).

محبة الثالوث

١– أتأمَّل اتساع البرية الهائل ورمال البرية التي تحيط بالدير وتدخل كل مكان فيه، وأحياناً أسأل نفسي: هل خلق الله هذا الكم من الرمال لكي يذكِّرنا بقدرته؟ وعندما أتذكر قدرة الله التي تضبط كل المخلوقات المنظورة، هذه القدرة الأزلية (رو ١: ٢٠) التي تشهد له بالربوبية، لا أملك أن أترك علاقة القدرة الإلهية بالمحبة؛ لأن السؤال الذي أسمعه من كثيرين: "لماذا خلق الله العالم"؟ تجيب عليه المنظورات وتشهد بالصلاح الإلهي الذي جاء بكل الموجودات من العدم، وصوَّر كل الكائنات في تنوعٍ بديعٍ يشهد بأن الخالق هو صالحٌ ورحيمٌ، خَلَقَ حبات الرمال بهذه الوفرة ومن فوقها نجوم السماء اللامعة – خلق الكل من العدم، من لا شيء، وجاء بها لكي تشهد له بالصلاح والخير والقدرة والمحبة التي من طبعها الجود.

٢– هذه الموجودات لم تُخلَق فقط، بل لا تزال حية باقية بما أودع الخالق فيها من حياةٍ وحركة حسب حدود طبعها؛ لأن الله لم يكتفِ بخلق العالم، بل أعطاه نظاماً وحدوداً وثبَّت كل الأشياء حسب صلاحه.

٣– نحن نعترف بأن الآب هو خالق كل الأشياء بابنه يسوع المسيح الكلمة ضابط الكل. هذه الحقيقة الفائقة التي تفوق كل الأشياء وتعلو على الفحص، تُعلِن لنا أن الآب خلق العالم المنظور وكل ما فيه، وغير المنظور وكل ما فيه من أجل الابن الوحيد؛ لكي يكون مجال استعلان الأبوة الإلهية. وعندما نقول من أجل الابن، فإننا نعتمد على عبارة الرسول: "الكل به وله خلق" (كولوسي ١: ١٦)، فهو خالق كل الأشياء بالابن وواهب كل الأشياء له، ولذلك "الكل خلق له".

٤– أعدَّ الآبُ الخليقةَ لتكون مجال استعلان المحبة الإلهية في ابنه وبالروح القدس، ولذلك كانت بدايات الإعلان: خَلقُ الإنسان حسب صورة الله (تك ١: ٢٦)

ليكون له الوجود الفائق فوق كل الموجودات المنظورة، بل وغير المنظورة، ليس بقدرات الإنسان، بل بقدرات النعمة الإلهية. وعندما خُلِقَ الإنسان حسب صورة الله، فقد كانت عطية الصورة تحتوي على أركان الشركة؛ لأن صورة الله هي الوجود الروحي العاقل الذي يستمد منه الإنسان معرفته بنفسه (كيانه) ومن معرفة الإنسان بنفسه يسمو مرتفعاً نحو الحقيقة الأعلى، أي الكلمة ابن الآب الذي لأجله خُلِقَ الكل لكي يقود الكل كراعٍ صالحٍ ومعلِّمٍ الحق للآب الذي منه كل الأشياء ونحن به (١ كور ٨: ٦)، والذي منه وُلِدَ الابن أزلياً لكي يعلنه للخليقة ويقودها نحوه لكي تسكن في الثالوث مستنيرةً بالإعلان الإلهي الذي يعطيه الابن ويغرسه الروح القدس المعزِّي.

٥- هذه هي أساسات المحبة الإلهية: خلقُ الإنسان على صورة الله، وإعلان الثالوث عن حياته وقدرته ومحبته بواسطة الابن. تقبل الخليقة هذا الإعلان من الابن في كيانها المنظور وغير المنظور أي الجسداني والروحي معاً. ثبات الخليقة في المحبة الإلهية المعلَنة بالروح القدس.

٦- كيف تعبِّر الصورة الإلهية التي أعطيت للإنسان عن محبة الله؟ ولماذا يجب أن تصبح عطية الصورة هي أساس المحبة؟ لا يجب أن تغيب هذه الحقيقة الرسولية عن فكرنا لأن المحبة هي تشبُّه ومخالطة وشركة واتحاد بمَن نحب. هكذا غرس الله المحبةَ في قلب الإنسان لكي يعلو بالشركة نحو ما هو أسمى من الوجود المنفرد الخاص بكل شخص؛ لأن الوجود المنفرد لكل شخص لا يعطي الكمال بالمرة، ولا يمنح للإنسان الوجود الحقيقي.

وإذا كان الإنسان مخلوقاً على صورة غير صورة الله، فقد تعذَّر عليه أن يحب الله؛ لأن المحبة والصورة هما وجهان لا يمكن فصلهما عن الآخر. الصورة هي الكيان نفسه، والمحبة هي القوة التي تحرك الإنسان وتجعله يطلب الآخر ويسعى نحوه بقوة عاقلة حرة تطلب الشركة. هذا ليس على المستوى الحسي والجسداني فقط، بل على المستوى الروحي الفائق؛ لأننا عندما نفشل في محبة الآخرين نبقى في فراغٍ نحس به، ويدفعنا إلى أن نمتلئ من شهوات نفوسنا فقط لكي يكبر ويزداد هذا الفراغ لأنه لم يمتلئ حسب الصورة الإلهية، أي حسب أساس الشركة، بل طلب الامتلاء من الذات وبالذات، فصار فراغه أكبر، يحضّه على الأنانية والبغضة والحسد، وعلى خطايا أخرى مركزها الذات التي

"حُشِرَت" في الجسد، ولم تعد تعرف حياة أعلى وأجمل من الحياة الجسدانية؛ لأن الذات عندما تتجه نحو كيانها، يظلَّم فيها الإدراك، وتصبح المعرفةُ فيها غارقةً في لُجة شهواتٍ جسدانية تظن النفس أنها غاية وجودها، فيزداد فيها الظلام.

لكن الله محب البشر وَهَبَ للإنسان صورته لكي يكون عاقلاً وحراً وحياً ساعياً نحو الشركة؛ إذ تأتي المعرفة من القلب ومن الخارج أيضاً. من القلب، حيث يعمل الروح القدس رب الحكمة والناطق في الأنبياء لكي يعطي للإنسان الفهم والحس الروحي الذي لا يُولد ولا يأتي من الاستدلال، بل يشعُّ مثل نورٍ يُشرق في القلب بدون مقدمات أو حتى سابق معرفة، وكم من مرةٍ لَمَعَ فيها معنى كلمات الوحي الإلهي فجأة بسبب الاستنارة التي تأتي من روح الحكمة، ومن لمعان نور الحق المشرق في القلب.

جاءت مع الخطية لعنة الموت، وهي اللعنة التي طلبها الإنسان، والتي شطرت (أي قسمت) الحياة الداخلية إلى قوى متصارعة، وهي من أول علامات الموت والانحلال الداخلي الذي يفصل القوى الخاصة بالحياة، ويحوِّل الاستدلال من إدراكٍ للحق كما هو إلى تحقيقٍ للشهوة؛ إذ يظن الإنسان أن القتل شجاعةٌ، وأن سفك الدم قدرةٌ، وأن الضرب والشتائم واللعنات هي قوة وتفوُّق. ومتى سكنت الشهوة واللذة في العقل، تحوَّل التصور إلى طلب اللذة لا إلى طلب الحق. وعندما يشتعل القلب ويسعى وراء اللذة، فإن الذاكرة تمد المخيلة بكل خبرات الماضي، وتشعل الصور العقلية في الإرادة الرغبةَ الجامحة. عند ذلك يقترب الإنسان من حفرة الموت، وهي حفرة طلب تحقيق مطالب الذات تحت صورةٍ مُقنَّعةٍ للحياة؛ إذ يلبس الموت صورة الحياة التي يظن الإنسان أنها صالحة، وهي حسب عبارة الرسول "منشئة الموت" (راجع رو ٧: ٢٤).

٧– هذه الدوامة العنيفة التي يدور فيها الإنسان المشتعل بنار اللذة حول ذاته، وضع لها الرب يسوع المسيح الدواءَ الوحيد الذي يجب أن يطلبه الإنسان بإرادته الخاصة مهما كانت ضعيفة، فقد ثبَّت تجسد رب المجد قاعدة "إخلاء الذات" (فيلبي ٢: ٦) وفي كلمات شافية يقول الرسول: "إن المسيح لم يرضِ ذاته" (رو ١٥: ٣)؛ لأن إرضاء الذات هو بداية التحول عن الله والسعي وراء غرورٍ ووهمٍ باطلٍ، وهو تصورات القلب الذي يسعى وراء مجده الذي لا مكان لله فيه. وقد جاء موت الرب المحيي على الصليب

المكرم لكي يثبت للإنسان الضعيف الخائر العزم:

أولاً: قوة البذل التي أبادت الخوف من الموت.

ثانياً: خلود الحياة الجديدة التي جعلت الموت والشيطان والجحيم تحت أقدامنا، ولذلك نقول للرب: "اسحق رؤوسه تحت أقدامنا سريعاً" (صلاة التحليل)، ولا نكتفي بذلك، بل نقول: "بدد عنا أفكاره وتصوراته العقلية الشريرة".

لقد جاء الرب يسوع كطبيب حكيم محب ونصب خيمته بيننا (يوحنا ١: ١٤). سكن فيه كل ملء اللاهوت جسدياً. و"السكنى" من علامات الإتحاد، "والحلول" من علامات "الإستعلان". وكما سكن الرب إله الآباء في وسط شعبه قديماً، يسكن الآن بيننا كرأس الجسد الذي منه تأخذ كل الأعضاء حياتها وقوتها؛ إذ يرسل يسوع الطبيب محب البشر قوة إخلاء الذات من أقنومه الإلهي المنتصر غالب الموت، قوة الصليب ومجد الحياة الأبدية إلى كل عضو في الجسد الواحد، جسد الرب الكنيسة، معلِناً – كطبيب – أنه ينزل إلى حفرة الخطية معنا لكي يرفعنا، ويدخل إلى القلب المنقسم لكي يرده إلى السلام، وينير الخائف بجمال ونور الحياة الأبدية ومجد النعمة السماوية.

٨– إذا صلَّينا بحرارة الروح القدس كل كلمة نطق بها الرب يسوع حسب وصية المزمور الأول الذي يصف الصديقين بأنهم "يلهجون نهاراً وليلاً في شريعة الرب" (مزمور ١: ٢)، عند ذلك تنكشف لنا أسرار المحبة الإلهية، ويظهر يسوع محب البشر حتى للذين غطَّت غشاوة الخطية عيونهم؛ لأننا نرى الرب يسوع المسيح كراعٍ يؤكِّد أنه لا يضحي بخروفٍ واحد، بل يترك الـ ٩٩ ويفتش على الخروف الضال (لو ١٥: ٤ – ٦). هو النور الذي يشرق في الظلمة لكل الضالين لأن فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه (يوحنا ١: ٤ – ٥). والظلمة هي العداوة والبغضة ولذلك قال الرسول يوحنا: "الله نور وليس فيه ظلمة البتة" (١ يو ١: ٥).

وعندما يقول الرب نفسه إن المدينة التي على رأس الجبل لا يمكن ان تبقى خفية وأن المنارة التي توضع في مكان عال تضئ لكل البيت (متى ٥: ١٥)، فقد كان يشير من طرف خفي إلى حقيقة تواضعه ومحبته؛ لأنه هو النور الذي يضيء وهو على المكان العالي؛ لأنه "ارتفع" على عود الصليب لكي يرسل لنا شعاع محبته الفادية لكي يتم قوله

الإلهي: "وأنا متى ارتفعت أجذب إلى الجميع" (يو ١٢: ٣٢)، فقد "رُفِعَ"؛ لكي يرفعنا معه لكي نرى مجده ونؤمن به.

٩- يذكر الإنجيل المقدس في أكثر من موضع أن يسوع كان يطوف القرى والمدن ليشفي الجموع التي كانت مثل خرافٍ لا راعي لها. هو الطبيب الحقيقي الذي يبحث عن المرضى. هو "الطبيب الحقيقي الذي لأنفسنا وأرواحنا". هو"إله الأرواح والأجساد". هو الذي يفتِّش عن المحتاج؛ لأنه في اشتعال محبته للبشر، لا يجلس مستريحاً في انتظار الآتين إليه. قَلَبَ يسوع قواعد حياة الملوك، صار الملك الذي يفتِّش عن الرعية، والملك الخادم الذي ينحني لكي يبحث عن المطرود، عن غير الأنقياء، عن الضالين، عن الذين وقعوا تحت سلطان الشيطان. محب البشر الذي يبحث عن المحتاج.

١٠- عندما قال الإنجيلي يوحنا: "لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق (١ يو ٣: ١٨)، فقد استلم هذا من المعلم يسوع المسيح محب البشر الذي لم يأتِ لكي يتكلم عن المحبة، بل بالأعمال أظهر المحبة. رآه زكا العشار وأدرك عمق محبة يسوع له، ولذلك أحس الرب بمحبة زكا، فطلب ضيافة زكا. لم يتكلم زكا عن أي شيء، ولم يذكر الرب أنه يحب زكا بل جمع الصمت الإثنين، وفي أعماق الصمت اكتشف زكا ضرورة توبته. المحبة تُعلَن بدون كلمات، والضيافة أقوى من الألفاظ.

١١- ونفس ما ذكرناه ينطبق على اللص الصالح الذي صُلِبَ عن يمين الرب، فقد لمس براءة ونقاء المصلوب؛ ولذلك تبع الرب في آلامه، ونطق بالحق، وشهد لبراءة يسوع. وفي عمق عذاب الصليب لم ينسَ الربُ اللِّصَ، فقال: "اليوم تكون معي في الفردوس". فقد لمح الربُ بقوة بصره الإلهي بذرة المحبة في نفس اللص؛ إذ كيف يرى اللص براءة المصلوب وهو غارقٌ في دنس الخطف والإستيلاء على ما يخص الآخرين، لأنه يرى أنه أعظم وأفضل، وأن غيره لا يجب أن يقتني شيئاً، لكن الصليب جرَّده من شهوات السرقة، وأدرك أن ساعته قد جاءت، ولذلك رأى نقاوة المصلوب. كان تدبيراً إلهياً أن يموت مع المخلص، وأن يسبقه الرب لكي يستقبله في الفردوس. وفي الفردوس رأى ما كان بعيداً عن الإدراك، رأى ذاك الذي هو لهيب محبة، والذي وعده بالفردوس. لم يدخل محب البشر الفردوس وحده، بل دخل ومعه اللص؛ لأن المحبة لا تطلب ما

لنفسها (١كور ١٣: ٥).

١٢– دخل محب البشر السامرة لأنه كان يرى القلب العطشان للمحبة، وهو قلب المرأة السامرية. وجلس عن البئر ينتظر ذلك القلب، ذلك الوعاء الفارغ الذي امتلأ من نجاسات الجسد، وظن أن فيها الجائزة الكبرى. اشتاق يسوع أن يعطي المرأة الماء الذي لا يسبب العطش، بل يعطي الارتواء، ومتى ارتوى صار الشوق إلى الارتواء الأكبر هو ذلك الينبوع الذي ينبع إلى حياة أبدية (راجع يوحنا ٤: ١٤). العطش هو ثمن ما ليس لدينا، هو رؤية الماء والسعي اليه. أما الارتواء فهو طلب تذوق يدفع إلى طلب البقاء في النعمة والسعي نحو المزيد، ليس عن شهوة، بل عن قناعة التخلي عن كل ما يعطِّل، إنها عدة قوى روحية تعمل معاً:

١– الرغبة في الالتصاق بالرب.

٢– التخلي الحر عن كل ما يعطل هذا الالتصاق.

٣– جحد كل ما يعطل الالتصاق.

٤– التسبيح والبقاء في الشركة.

هذا ليس هو الارتواء، بل الارتواء هو أولاً بالرؤيا لمجد الحياة الأبدية، وهو ليس فقط رغبة أو شعور أو عواطف، بل هو انطلاق الروح بقواها العاقلة نحو ما هو أعظم، وهو الرب يسوع المسيح المتكئ في حضن الآب، والسعي للبقاء في حضن الآب. عند ذلك يصبح طلب المواهب الروحية مثل الحديث عن التراب، أما طلب البقاء في نار المحبة، فهو الذهب النقي الذي تريده النفس بإصرار المحبة.

١٣– أسقطت السامرية أول قطعة من الغشاوة عندما سمعت يسوع يتحدث إليها كيهودي، وسقطت قطعة أخرى عندما سمعت الرب يسوع يقدم لها "عطية الله" (يو ٤: ١٠). وتبدد ما تبقى عند البحث عن وسيلة، ليس لديك "دلو". الماء ليس ماء بئر يعقوب، إنه ليس الاختبار القديم، ولا هو فكر ورؤية البشر الذين عاشوا قبلنا، مَن يشرب من التاريخ القديم يحيا في القديم، ويظل سجين الماضي؛ لأن الزمان والعادات والأفكار، حتى الجديدة منها لا تقربنا من الله؛ لذلك قال الرسول وشاهد يسوع المسيح إن الطعام لا يقربنا من الله (١كو ٨: ٨). وعندما قال إن ملكوت الله ليس أكلاً أو

شرباً بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس (رو ١٤: ١٧)، فقد أكد أن الوسطاء غير قادرين على أن يقربوننا من الله. الوسطاء هم:

* نوع الطعام.
* فرائض الاغتسالات حسب شريعة موسى.
* نظام ومواعيد الصلوات.
* فترات الصوم.
* أنواع الملابس.

وغيرها من ممارسات لا تجعلنا "مرضيين" عند الله؛ لأن الله رضى بنا عندما تجسد وتأنس وأحب الطبيعة الإنسانية التي قدَّمها له الروح القدس، الروح المعزي لكي "يغرس" المحبة الإلهية، بآدم الأخير (١كور ١٥: ٤٥)، ويقدم للآب إنساناً كاملاً له "ملء القامة" (أف ٤: ١٣) التي أرادها الآب الصالح عندما دبَّر خلق العالم.

١٤– عندما جاء الرب إلى سوخار وتعب من السفر، جلس عند البئر، وكانت نحو الساعة السادسة (يوحنا ٤: ٦). هي الساعة التي صُلِبَ فيها معلِناً محبته للبشر. وهناك عند البئر قدَّم لها بشارة الحياة الأبدية، إلى امرأة كان لها "خمسة أزواج" (يوحنا ٤: ١٨)، والسادس كما قال رب المجد: "ليس هو زوجك"؛ لأنه كما يبدو من كلام المخلص كان عشيقاً. عجيب أن يقدم الرب نعمة الحياة الأبدية لهذه المرأة، ولكن أين هي حدود المحبة الإلهية؟ بل ما هي هذه الحدود؟

* أنها لا تنتظر ولا تطلب شروطاً ولا تضع قيوداً، بل هنا لم يطلب الرب التوبة لأن توبتنا لم تستدعِ محبة الله، ولم تكن هي سبباً لتجسده، بل كما علَّمتنا الكنيسة "غُلِبَ من تحننه"، ثم "أرسل لنا ذراعه التي تعلو على كل قوة لتهدم كل الموانع".

* المحبة "تتأنى وترفق"، بل "تصبر على كل شيء"، ولكنها لا تتراجع.

* المحبة لا تقبِّح لأنها لا ترى الخطايا ولا حتى تتحدث عنها، بل لا ترى الخاطئ قبيحاً؛ لأنها تراه كما تحب أن يكون.

* المحبة لا تسقط أبداً، حتى أمام عناد وتشامخ الفكر وكبرياء القلب، لا تطلب المحبة الدينونة بل المصالحة، لا تسعى للحكم بل تسعى للغفران، لا تنتقم من الذين

يرفضونها؛ ولذلك قال الرسول يعقوب عن وجه المحبة اللامع والمشرق بالقبول والغفران: "الرحمة تفتخر على الحكم" (يع ٢: ١٣)، وقد أضاف إلى قول الرسول معلمنا الكبير ديونيسيوس: الرحمة هي وجه المحبة وهي تفتخر على الحكم في يوم الدينونة؛ لأننا بالرحمة ندخل الملكوت، وما أكثر الخطاة الذين سوف تنقذهم رحمة الله.

١٥- لا تضع طقوساً مثل السامرية "آباؤنا سجدوا في هذا الجبل" لكي تعطل محبة الله، ولا تضع الخلافات عائقاً "وأنتم تقولون أن في أورشليم المكان الذي ينبغي أن يسجد فيه البشر لله (راجع يوحنا ٤: ٢٠) ولكن أيها الباحث عن الله، هذا هو صوت المحبة: لقد كان الخلاص هو من عند اليهود (يوحنا ٤: ٢٢)، ولكن عندما يندفع طوفان المحبة الإلهية، فإن طقوس الآباء والعادات التي تميِّز جماعة معينة تجرفها المحبة الإلهية؛ لأن السجود الحقيقي للآب هو بروح الحق، روح يسوع الإله المتجسد، لأننا في يسوع نسجد فيه بالروح القدس المنبثق من الآب (يوحنا ١٦: ٢٥) لكي يضعنا الروح القدس في بحر المحبة الإلهية حيث لا عوائق ولا موانع لأن يسوع ملك المجد قد غلب الموت وقهر الفساد ورفع الحكم وأعطانا الحياة الأبدية.

١٦- ترك لنا الإنجيلي لوقا دستور المحبة الإلهية في الإصحاح الخامس عشر، كان عسل المحبة الشهي يقطر، ولذلك كما يقول الإنجيلي: "كان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه". لقد رأوا فيه ما لا يمكن رؤيته في الفريسيين الذين أضافوا كل الشروط الثقيلة على وصايا الله وجعلوها كما قال الرب: "أحمالاً يستحيل على أي أحد أن يحملها (حسب الأصل أحمالاً عسيرة أو شاقة). سكب الرب يسوع كأس المحبة أمام الجميع لأنه كان -كما ذكر الإنجيلي - "يقبل الخطاة ويأكل معهم" (لو ١٥: ٢)، وجاء المثل مثل سيل مياه كثيرة لا يمكن أن يقف أمامها عائق. يترك صاحب الخراف الـ ٩٩ ويذهب لأجل الضال. لا تقبل المحبة أن تخسر ولو خروفاً واحداً ضالاً، ولاحظوا كلمات الرب نفسه: "وعندما يجد الخروف الضال لا يقوده بل يضعه على منكبيه ويا لقوة المحبة، يحمله "فرحاً" (راجع لوقا ١٤: ١ - ٤).

عندما قال الرسول: "المحبة لا تفرح بالإثم"، فقد وضع الحد الذي لا يمكن أن تعبره؛ لأنها ضد كل إثم، ولكن هنا يضع الرب يسوع محب البشر ما هو أعظم من عدم

عبور الحد؛ لأن هذا هو حركة سلبية، بل الحركة الإيجابية للمحبة هي أنها ايجابية تفرح بعودة الضال وتحمله لأنه تعب من ثقل حمل الإثم والخطايا. هكذا يحمل "محب البشر" كل ضال مهما كانت آثامه، ولذلك قيل إنه "حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا ١: ٢٩).

١٧- ويعلن الرب يسوع فرح المحبة، فقد جاء صاحب الخراف إلى بيته ودعى الأصدقاء والجيران قائلاً لهم افرحوا معي لأني وجدت خروفي الضال (لوقا ١٥: ٥). لم يقل وجدت الخروف، بل "خروفي". لم ينزع عنه الانتماء، لا زال يملكه ويقول: "الضال" ليس من قبيل الشماتة، بل لكي يعلن أن الفرح الحقيقي، أي فرح المحبة التي لا تحفظ هذا الفرح لنفسها لأن المحبة لا تطلب ما لنفسها، وختم الرب قوله: "هكذا يكون فرح في السماء" (لوقا ١٥: ٢٧).

١٨- لنقف قليلاً عند فرح المحبة بعودة الضال، فقد أكده الرب في مثل الدرهم الضائع الذي تبحث عنه ربة البيت بكل اجتهاد (لوقا ١٥: ٨)، بل أنها توقد سراجاً فترسل المحبة نور المعرفة للاستنارة لكي يدخل نور المحبة القلب المظلم، ثم مع الاستنارة يأتي التطهير؛ لأنها "تكنس البيت" وتفتش باجتهاد (لوقا ١٥: ٨)، ثم بعد التطهير يأتي الاتحاد، وهو قبول الخاطئ في الشركة.

المحبة تفرح بنا، بل تفتِّش علينا وتدعونا إلى العودة إلى الله، وتجتهد المحبة لأنها تعلم أن الضائع سيبقى ضائعاً إن لم تسعَ خلفه. لقد طلب الربُ الضالين وحدد بذلك حركتين للمحبة: الحركة الأولى هي طلب الضال كما في مَثَلَي الخروف والدرهم، والحركة الثانية هي بحث الضال نفسه عن المحبة كما في مثل الابن الشاطر، "لأنه تذكر رتبته الأولى" التي سقط منها، وقرر العودة.

* تفرح المحبة برد الحياة لأنها تجني، وكما يفرح الفلاح عندما يجمع الحصاد؛ لأن الذين يغرسون بتعب وعرق النهار "يحصدون بالفرح" (راجع مزمور ١٢٦: ٢٤) ويجيء الحصاد بالترنم (مزمور ١٢٦: ٦) وعندما تثمر بذرة الحياة الجديدة فينا، يضع الرب ذات الفرح في قلوبنا وفي قلوب الرتب السماوية حسبما ذكر هو بفمه الإلهي (راجع لوقا ١٥: ١- وما بعده).

* تفرح المحبة بالانتصار على الانفصال؛ لأن الخروف الضال ترك القطيع وعندما أعاده الراعي الصالح رب كل الخراف كان فرحٌ في السماء.

* تفرح المحبة بغلبة الرحمة على القسوة، والغفران على العداوة، والسلام على الخصام، والألفة والشركة تقهر العداوة وتدوس الدينونة بقدمي الرحمة والصلاح.

١٩– لقد أعطت المحبة حرية الاختيار لأنه حيث لا مكان للحرية لا يوجد للمحبة مكان (حيث لا مكان للحرية لا مكان للمحبة) ولذلك قسَّم الأب معيشته وأعطى الابن الأصغر الشِّطر الذي يخصه (راجع لوقا ١٥: ١١ وما بعده). تركت المحبة لنا حرية الاختيار، ولذلك "بعد أيام ليست كثيرة جمع الابن الأصغر كل شيء وسافر إلى كورة بعيدة" (لوقا ١٥: ١٣).

* لا يعرف الشرُّ حدوداً يجب أن يقف عندها؛ لأنه تحرر من كل التزام. بدد الابن المال الذي لم يجمعه مثل آدم الأول الذي بدد صورة الله ومثاله (تك ١: ٢٦). عجيب حقاً أن تأتي المجاعة الشديدة في وقت الفقر (لوقا ١٥: ١٤). تلك مأساة، بل هي كارثة الخطية التي تظهر عندما نجد أن كل الوسائل التي اخترعناها لأنفسنا عاجزةٌ عن أن تُشبع قلوبنا الجائعة.

لقد تسوَّلت البشرية من الوثنية ولم تشبع، وتسوَّل شعب اسرائيل من التوراة ولم يجد فيها سوى العبودية، ولكن جاء ابن الله لكي يذكِّرنا بالغنى الذي كان لنا في بيت الآب، جاء برسالة الملكوت. جاء الابن يطلب أن يكون عبداً أجيراً بعد أن فقد كرامة البنوة وبدد الميراث، ولكن ماذا يقول الرب: "وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه فتحنن وركض"؛ لأنه لم ينتظر أن يأتي إليه الابن لئلا يخطئ الابن في فهم هذا الانتظار، وحتى لا يترك للشك مكاناً في قلب ابنه أخذه وقبَّله على عنقه" (لوقا ١٥: ٢٠)، ذلك العنق الذي حمل نير الخطية والشر، قبَّله معطياً إياه أعظم ما تجود به المحبة وهو القبلة.

* المحبة لا تحفظ الخطايا، بل تطرحها في بحر الغفران (راجع ميخا النبي ٧: ١٨ – ٢٠).

* حنان المحبة أقوى من خطايانا؛ لأن المحبة تعرف الضعف، ولا تلتمس الأعذار

لأن العذر هو من رتبة[1] المحاكم، ولكن المحبة لا تحاكم أحداً لأن الحنان لا يحاكم أحداً.

٢٠- أمَّا عدو المحبة الأول فهو الانقسام، وهو ثمرة من ثمرات الكبرياء ومن بقايا الطبيعة القديمة. لأن آدم أراد أن يكون إلهاً بدون شركة في اللاهوت، وبذلك تسلل الانقسام إلى كيانه. لم يقبل أن يكون صورة الله، فصار صورةً لذاته، ولم يرضَ بالحدود التي أعطيت بالنعمة فسعى إلى ما يوصف حسب كلمات الإنجيلي بـ "التعدي"، أي الخروج خارج (دائرة الوجود)، وطلب الوجود الذاتي النابع من الكيان المخلوق من العدم، ولذلك سقط في الموت.

٢١- الكبرياء تقسِّم؛ لأنها سعي الذات نحو نفسها، وصورة هذا السعي "الأنانية" حيث تطلب الذات من داخلها وبواسطة المخيِّلة ما تظن أنها لها وحدها.

٢٢- لكن المحبة هي تلك النار التي تلتهم الكبرياء أي محبة يسوع؛ لأن البشر يُفسدون هذه الكلمة ويستعملونها في غير موضعها وفي غير معناها الحقيقي. المحبة تنبع من القلب ϩⲏⲧ وهي رؤية داخلية وإدراك من الفطنة ⲛⲟⲩⲥ فهي ليست فكرة تأتي من العقل، بل هي الأساس ⲡⲓⲥⲁⲛⲧⲓ أو أساس الوجود الحي ⲡⲓⲱⲛϧ لأن الوجود الخاضع للموت يعرف الشهوة والامتلاك، أمَّا الوجود الذي صار حياً في المسيح يسوع ربنا، فهو يعرف العطاء، وقد تحوَّلت فيه الشهوة إلى قوة للعطاء لا إلى عمى الامتلاك.

٢٣- يذكرني هذا الرقم بالمزمور ٢٣ وهو من ألحان المحبة لأن كل المزامير هي أناشيد محبة، أحياناً جريحة من مصائب الأعداء وتصرخ، وأحياناً ترتمي في بحر الرحمة الإلهية لكي تحيا حسب هذه الرحمة. لذلك علينا - عندما نصلي المزامير - أن نقف ولو لبرهة قصيرة لكي نستعيد محبة يسوع، ولكي نرى أنه حتى في الكلمات التي نطلب فيها الانتقام من الأعداء، فإن هذه الكلمات هي مرآة الحياة القديمة التي أخذناها من آدم الأول والتي يجب أن تُفتدى في آدم الأخير ربنا يسوع المسيح الذي له المجد الدائم إلى الأبد. آمين.

([1]) العذر هو طقس المحكمة وتقديم العذر هو نوع من العتاب، والمحبة ترتفع على مستوى العتاب لمن يقدر عليه (الأنبا مكسيموس أسقف القليوبية المتنيح).

٢٤– حسناً. جئنا إلى أحد جوانب المحبة، وهي العواطف والمشاعر التي أحياناً نحس بها مثل اندفاع مياه طوفان عنيف. هذه أحد فروع المحبة، ولكنها ليست الجذر، ولا حتى ساق شجرة المحبة. العواطف المقدسة النبيلة جيدة، ولكن المحبة ليست هي هذه العواطف أو المشاعر المقدسة، إنها أقوى وأعظم؛ لأنها من الحكمة والفطنة والإرادة والرؤيا (حرفياً التاؤريا[1]) وفي حرارة الروح القدس والالتصاق بيسوع المسيح أحياناً كمصلوب ومتألم ومطرود ومُشتكى عليه، وأحياناً في مجد جبل طابور (جبل التجلي) تُولد هذه المشاعر من كلمة الله، ومحاربة القوات الشريرة، ومن مضايقات الناس، لكن طريق الكاملين هو في ولادة المشاعر والعواطف من الحكمة لا من شعور أو عاطفة فقط.

٢٥– عندما سألتني – يا عطية الله – عن نار الروح القدس، وجدت نفسي أمام آتون المحبة الإلهية. ووجدت أن ألسنة اللهب تتحرك في اتجاهات متناغمة. فهي تطهِّر وتنزع الخشية من الخطية. وهي تنير وتقوي السعي فينا لطلب الحق. وهي تقدِّس عندما تمنحنا رؤية مجد الحياة الجديدة، هذه التي نطلبها بذات حرارة الروح القدس. وهي تغوص في أعماق الروح الإنسانية؛ لكي تجعل الموت أهون من السقوط، ومحبة الأعداء وغفران الخطايا الموجَّهة ضدنا مثل عسلٍ شهيٍّ للروح والجسد. عند ذلك لا تجد في نفسك رغبةً في النوم أو الكلام، أو خُلطة (معاشرة) الناس، بل سعادة وفرح بالصمت.

٢٦– عندما تلمس نار الروح القدس كياننا، تصبح العواطف والفكر أي عواطفنا وأفكارنا بلا قيمة، بل لا نحتاج إليها؛ لأننا "عراةٌ" خرجتُ من بطن أمي كما قال أيوب البار (تركنا النص كما هو)، وعراةٌ نعود إلى الله؛ لأن المحبة النارية تجردنا من كل شيء وتجعلنا أحراراً عراةً من كل ما نعرف ونطلب أمام الثالوث القدوس.

٢٧– عندما يجرِّدنا الروح الناري — حسب كلمات أبينا انطونيوس البار — من تفضيل الذات على الرب وعلى الآخرين، ويوحِّدنا بأعضاء جسد الرب يسوع، فإننا عند ذلك ندخل طاحونة الجلجثة، حيث تُطحن الذات لتصير الدقيق الذي بنار الروح القدس يصبح خبز حياة يوزِّعه الرأس نفسه، أي الرب يسوع المسيح في خدمة أعضاء

([1]) راجع كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية للأب متى المسكين. ولم يحدد الأب صفرونيوس ما هو المقصود "التاؤريا".

جسده، ولأنه هو الذبيحة وخبز الحياة، فإنه بالروح القدس يوحِّدنا في محبته لكي نتحرر من الأهواء عاملين معه وبه إرادته السماوية لكي نصل إلى ما علَّم به رسول الرب نفسه: "قدموا أجسادكم ذبائح حية روحية" (راجع رو ١٢: ١).

٢٨– هذا يعمله الرب من أجل (بسبب) محبته؛ لأنه يحوِّلنا إليه لكي نصير كمثل تحوُّل ناسوته؛ لأن هذا هو غاية المحبة أي شركتنا في حياة الثالوث بالابن الممجد.

٢٩– أمَّا إذا سألنا عن تطهير الروح القدس، فإن أحدى صلواتنا تقول: "أعطني النار غير المحسوسة لكي تحرق الضعيفات"؛ لأن هذه النار تكشف مجد الأمور الأبدية لنا، وتنزع عنا كل التصاقٍ بالأمور الأرضية، وتعطي للنفس أن تعاين بهاء الحياة الجديدة وجمالها، فتسعى إليها بشوق وعزم.

٣٠– والتقديس ليس نزع ما هو غريب عن المحبة الإلهية، بل تحوُّلنا نحن إلى ذات المحبة على قدر ما تسمح به نعمة الله وتقبله الطبيعة البشرية، وهو ما أُعلِن في تدبير تجسد ابن الله ربنا يسوع المسيح.

٣١– توجد قداسة واحدة للثالوث القدوس أُعلِنت لنا في الابن بواسطة الروح القدس. وهي نعمة وعمل الثالوث التي تردنا إلى صورة الله التي جُدِّدت في يسوع المسيح ابن الله. قداسةٌ من الآب الذي قال: "كونوا قديسين" مُعلَنةٌ في الابن الذي قال: "لأجلهم أقدِّس ذاتي لكي يكونوا مقدسين في الحق". هذه القداسة تعطي لنا تخصيص المحبة الإلهية وارتفاعها فوق التصورات والمشاعر وكل أنواع العواطف.

٣٢– محبة الثالوث، محبة القدوس، محبة خاصة لا مثيل لها. وتقديس المحبة هو في ارتفاع هذه المحبة فوق كل ما هو أرضي. وعلينا أن نطلب ذلك من الروح الناري لكي نُقدَّس. وهذه هي علامات تقديس المحبة كما نلاحظها:

كل من لا يضبط لسانه، ولا يعف عن الكلام الباطل هو غريب عن محبة الله؛ لأن المحبة تشفي ولا تجرح. وجروح اللسان لا تُشفى في أيام، بل تصيب الذين جُرحوا "بصغر النفس" بعطب. لذلك نحن لا نصدق من هو سريع الاعتداء على الآخرين بأنه عَرِفَ أو ذاق المحبة الإلهية، بل هو حتى غريبٌ عن محبة ذاته، أي محبة الذات الحقيقية التي سوف نشرح جوانبها المختلفة.

٣٣– من يجد لذةً في سرد أخطاء وخطايا الآخرين هو مولود من الشيطان، ولم يعرف محبة الله، ولا قبل غفران الله.

٣٤– سد أذنيك معاً، أي لا تجد في صمتك فضيلة عندما تسمع مذمة، بل قل في قلبك أنا لست أفضل، وقل كلمات محبة؛ لأنك بهذا تقف عن يمين الآب مع الرب الذي لا يدين، بل يغفر وقد أجَّل الدينونة إلى اليوم الأخير.

٣٥– إذ جاء عليك رعب الدينونة إذا سقطت، فاعلم أنه أحد بقايا "العبد" التي لم تتجدد في يسوع المسيح الابن الحر، الذي لم يكن رعباً لنا، بل الراعي الصالح والطبيب والكرمة. عليك أن تضع بقايا هذا العبد تحت قدمي الرب الذي صار عبداً لأجلنا (فيلبي ٢: ٦) لكي يرفعنا إلى مجد بنوته.

٣٦– لا تظن أن الله الآب الكلي الصلاح يحبك على قدر معرفتك، فهذا خطأٌ في إدراك التدبير؛ لأن الله ليس فقط أعظم من أن تدرك عقولنا عمق محبته وارتفاعها عن كل حدود الطبائع المخلوقة، بل لأن إعلان محبة الله في يسوع المسيح يفوق كل إدراك لأن تجسد الابن ربنا يسوع هو تواضع إلهي هدم كل شموخ العقل، وأسر كل تصور عن المحبة الإلهية وقيَّده بقيد التدبير، أي إنكار كل ما وصلنا من الوثنية. ومن يتصور أو يحس بأن الله يتعامل معنا على قدر معرفتنا؛ لن ينجو من الخوف ورعب الدينونة، ولن تنمو محبته لأن المعرفة الخاطئة صارت قيداً يقيد المحبة.

٣٧– إذن ماذا يجب علينا أن نفعل إذا وجدنا أنفسنا أسرى لفكر خاطئ، وهو أن نتصور الله كما نتصور البشر، أو عندما يصبح الله الكلي الصلاح هو صورة ЄΙΚΟΝ أكبر وأعظم من البشر؛ لأن هذه هي وثنية جديدة تدفعنا لأن نجد الله في نظريات وإدراك الفكر. والجواب هو أن نعود إلى كلام الرسول، أي أن ندرك محبة الله الفائقة المعرفة (أف ٣: ١٩) في يسوع المسيح وحده.

٣٨– لا تسأل "كيف؟"؛ لأن هذا السؤال معناه أنك تريد أن تسلك ذات الطريق القديم، أي طريق المعرفة التي تبحث عن المحبة، وهو خطأٌ فادحٌ؛ لأن المحبة التي تولد من المعرفة تظل مقيَّدة بما أعطته الأم. أما المحبة التي تلد معرفة إلهية، فهي تلك التي يعطيها الروح القدس (رو ٥: ٥) حسب قول الرسول بأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا

بهذا الروح الناري الذي يجرف أمامه كل شموخ الفكر، ويجرد الإنسان من رعب الدينونة لكي لا يتوب توبة الخوف، بل توبة المحبة التي تجعل هذه التوبة نقية مثل الفضة التي صفيت سبعة أضعاف (مزمور ١٢: ٦).

٣٩– هكذا أيضاً لا يجب أن نبقى في خوف من الدينونة، بل أن يصبح هذا الخوف ثمرة المحبة، أي أن نخاف أن نفقد هذه المحبة الوافرة ونرتد على أنفسنا ونسقط في خطايا كثيرة مصدرها الأول والأخير هو العودة إلى الذات والإفراط في محبتها؛ لأن هذا هو الطريق الواسع الذي يؤدي إلى الهلاك. ولذلك قال طبيب الجنس البشري ربنا يسوع المسيح: "من وجد نفسه"، أي من أغلق ذاته على ذاته، يفقدها، أي لا تثمر بل تحيا جحيم الموت قبل جهنم الأبدية. أمَّا من "أضاع أو بذل ذاته"، يجدها أي يدركها في بحر المحبة الذي يُعلِّم كل إنسان تواضع القلب والانكسار أمام صلاح الله الذي يفوق كل ما يمكن أن يقال أو يعلَن. علينا أن نسير حسب تدبير الروح القدس الذي يخلع من القلب محبة الذات النابعة من الذات، ويجعلنا نحب أنفسنا بنعمة الذي دعانا إلى المجد والفضيلة (٢ بط ١: ٣).

٤٠– حسب تدبير الروح القدس، تسقط كل معارفنا عند قدمي المصلوب يسوع المسيح ربنا الذي مات لأجل الخطاة، وبموته عن الخطاة خلع من الإنسان كل محبة فاسدة تقود إلى تشامخ الفكر، فقد غرس الصليب في التاريخ والوجدان لكي يؤكد لنا أن الإنسان، كل إنسان خاطئ، وأنه بدون المسيح لا يمكن أن يتذوق محبة حقيقية لا لنفسه، ولا للعالم، ولا لله نفسه.

٤١– تأمَّل، لماذا أصر المسيح الرب على أن عدم الغفران يحرمنا من الغفران؟ ليس لأن صلاح الله ومحبته محدود بما نفعل، وإنما لأن عدم الغفران يجعلنا نحن أنفسنا غير قادرين على تذوق غفران الله الآب. لأننا إن لم نغفر لا يغفر لنا الآب السماوي، ليس بقساوة، وإنما لأننا فقدنا النعمة، أي نعمة الغفران التي تعطىَ لنا لكي ننمو في معرفة غفران الله الآب. فكيف ندفن هذه "الوزنة"، ثم نتوقع أن ننال شيئاً بعد دفنها؟

٤٢– وعندما لا نغفر للآخرين، فإن محبتنا تظل مقيَّدة لا تنمو، بل قد تموت تحت وطأة وثقل العداوة، وبذلك نفشل في تذوق محبة الله الآب.

٤٣– كل ما نفعله من أعمال، وكل ما نقبله من تصورات (خيالات)، وكل ما نحس به هو القاعدة والأساس الذي تقوم عليه حياتنا. كل قول وفكر وعمل يعود علينا نحن ويقيِّدنا إمَّا بالفضائل أو الرذائل، لذلك من تقسَّى قلبه؛ عجز عن الإدراك أو حتى الإحساس القلبي بقوة غفران الله الآب.

٤٤– لقد تعلمنا من آدم الأول أن نضع أنفسنا قبل الله نفسه. فقد أدار آدم نظره نحو ذاته فوجدها كما أرادها، مستقلةً ذات إرادة منفصلة عن الله، ووضع لذاته شريعة معرفة الخير والشر حسب تصوره، فصارت الذات هي الوجود، وأصبح هذا الوجود منفصلاً عن الله، فدخل الموت وقتل الشركة، وصار الخوف من الموت هو "الداء الخفي" الذي يحرك إرادة الإنسان نحو ما يظن الإنسان أن فيه خلوده. من هنا بالذات توقف نمو الإنسان؛ لأن الذات لا تنمو بقدراتها وحدها، بل بما تنال من عطايا في الشركة. وتوقفت المحبة، فقتل قايين أخاه، وعمَّ الفساد والقتل والزنى.

٤٥– أمَّا الطبيب الحقيقي فقد جاء متجسداً من والدة الإله، ونال جسده من الروح القدس لكي يضع أساس شركتنا حتى بالجسد في الحياة الإلهية، وأخلى ذاته لكي يستر عري آدم، ولذلك قال إن كل مَن لا يجحد ذاته ويحمل صليبه لا يستحق أن يكون له تلميذاً (لو ١٤: ٢٧)، أي يعجز عن دخول مدرسة المحبة. لذلك علينا أن نقبل هذا الدواء الذي يغسل عار الارتداد نحو الذات كمصدر للحياة الوجود.

٤٦– فما هو جحد الذات؟ هو كراهية وبغضة الحياة الأولى التي أخذناها من آدم لكي نؤهَّل سرياً أن نأخذ الحياة الجديدة من آدم الأخير الرب يسوع المسيح الذي بصليبه حوَّل الناسوت فيه إلى حياة جديدة متألِّهة بالاتحاد بأقنومه؛ إذ جعل الناسوت يحيا حسب هذا الاتحاد السري الفائق لكي يكون مثالاً وينبوعاً لاتحادنا السري بالرب يسوع حسب عمل الروح القدس فينا.

٤٧– وكراهية الذات القديمة هي "قرار" الإرادة، ولكن كمال هذا "القرار" هو بمسحة الروح القدس؛ لأن الذي يثبِّتنا وقد مسحنا هو الله الآب في ابنه يسوع المسيح، الذي ختمنا بالروح القدس (راجع ٢ كو ١: ١٢).

٤٨– قرار الإرادة النابع من المحبة الإلهية التي تؤلِّه الإرادة الإنسانية حتى لا تقع

في التردد، وذلك عندما يقدِّم لها الروح القدس المناظر الروحية العالية للحياة الجديدة وصورتها الكاملة، ويضع العطش لطلب ذات مجد ابن الله ربنا يسوع المسيح، فتجد النفس أن راحتها في مجد الابن الوحيد، حتى لو كان ذلك يتعارض مع كل المشاعر؛ لأن "الحس الروحي" الذي يغرسه الروح القدس هو ذات "الحس الروحي" الذي ناله الناسوت وأدركه بالإتحاد بأقنوم الله الكلمة عندما تجسد ونما قليلاً مثل البشر، ونحن نأخذ من ملئه (يوحنا ١: ١٤) تلك النعمة التي تعلِن محبة الثالوث للبشر؛ لأننا بالمحبة نغلب وننمو صاعدين نحو الكمال الذي أدركه يسوع نفسه كإنسان.

٤٩– جحد الذات هو بداية التواضع الحقيقي؛ لأننا عندما نقول: "إننا خطاة"، فهذا تقريرٌ للحقيقة. أمَّا التواضع، فهو عندما نرى أنفسنا فارغين من كل صلاح، وأن ما فينا هو من هبات الاستنارة التي يعطيها روح المحبة الإلهية (رو ٥: ٥) لكل مَن يطلب؛ لأن التواضع هو الذي يقودنا إلى الامتلاء من الروح القدس. وعندما ندرك أننا نعجز عن محبة الله، فإن الروح القدس الذي يئن مشتاقاً إلى أن يعطي لنا كل شيء (رو ٨: ٢٦)، يسكب هذه المحبة في قلوبنا الفارغة على قدر صلاحه وعلى قدر احتمال طبعنا الواهن الضعيف.

٥٠– عندما أنشد الرسول نشيد المحبة (١كو ١٣: ٤ – ٨)، فقد وضع أساس الحياة السرية ***Mystical*** لكل مَن يطلب هذه الحياة. أمَّا مَن يريد أن يسير ويعيش حسب الأهواء، فهو مثل ورقة شجرة يابسة تطوِّح بها الرياح في كل اتجاه. الثبات في المسيح هو ثبات في محبته (يوحنا ١٥: ٩)، والمحبة تغلب؛ لأن من طبيعة المحبة ليس فقط الوفاء، بل البذل والعطاء، ولذلك يأتي جحد الذات مثل النار التي تعطي الدفء لكل عمل روحي.

٥١– عندما وصف الرسول المحبة بأوصاف سلبية، ونفى عنها تماماً أنها لا تتفاخر ولا تعلو ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها، فقد كشف لنا سر محبة المصلوب لأن:

* عدم الحسد مصدره الصلاح.
* عدم التفاخر سببه البذل.
* عدم الاستعلاء يعني التواضع.

* عدم تصور أو إعلان قباحة الخطاة هو نار المحبة التي جعلت القدوس ابن الله يموت عن الخطاة.

* ولا تطلب ما لنفسها، فقد أعلنت الغفران الكامل للكل.

ولكن لاحظ تكامل المحبة:

* المحبة تتأنى وترفق، ولذلك لا تحسد.

* المحبة لا تتفاخر ولا تعلو، ولذلك لا تطلب ما لنفسها.

* المحبة لا تحتد لأنها ترى الكمال قبل النقص وهي ينبوع الرجاء.

* المحبة لا تظن السوء لأنها لا ترى الشر وليس فيها شر، بل هي النقاء.

* المحبة لا تفرح بالإثم؛ لأن الفرح بالإثم هو فرح الشيطان، بينما فرح المحبة هو فرح الله.

* المحبة تفرح بالحق، وهنا نرى الثالوث: الآب يفرح بالابن الحق، والابن الحق يفرح "بروح الحق"، وروح الحق يفرح بالحق الذي تعلِنُه الكنيسة[١].

* المحبة تحتمل كل شيء؛ لأنها رفعت خطايا العالم كله كمانع يحجز العالم عن الله.

* المحبة تصدق كل شيء، ليس لأنها بلهاء أو غبية، بل لأن نقاء المحبة لا يسمح بالشر، وكل المواعيد الإلهية هي حق، ومَن ذاق المحبة لا يجرِّب الله، بل يثق في مواعيده، ولذلك هي ترجو كمال الكل، وتصبر حتى على الابن الضال حتى يعود. ولذلك قال الرسول إنها لا تفشل ولا تسقط؛ لأن السقوط قاصر على الخطاة، والسقوط هو الفشل في الوصول إلى غاية.

٥٢- والآن لنعود إلى الحياة السرية *Mystical* لأن من يريد الاتحاد بالمسيح، عليه أن يعرف شريعة المحبة، وأن يسلك حسب هذه الشريعة؛ لأن بداية الاتحاد حسب شريعة المحبة هو في كلمات الرسول السابقة (١ كو ١٣: ٤ - ٨)، والسلوك حسب هذه الشريعة يعني أن نترك الخطية تماماً؛ لأن كل الخطايا هي ضد المحبة، وهي لذلك

---

(١) راجع الثالوث فرح الخليقة الجديدة.

السبب عينه هي ضد الله.

٥٣– تغلق الخطية علينا كل سبل تذوُّق المحبة؛ لأن دمار الخطية للنفس هو أنها تجعل النفس مصدر أو ينبوع وغاية كل شيء، وهي بذلك تجعل الحواس أسيرةً لكل لذةٍ، وتحصر الفكر في تطلعات الإدراك إلى إشباع الذات. هذا كما ترى – يا ثيئودوروس – هو ما حذَّر منه الرسول عندما جعل المحبة أساس الحياة، وجعل المحبة ترياق السموم التي تقتل الحياة، وهي: الحسد – التعالي – ظن السوء – الفرح بسقوط الناس – احتداد الطبع وسرعة الغضب. وهذه كلها هي طبيعة الشيطان نفسه.

٥٤– شريعة المحبة هي الصليب وغايتها القيامة، ولذلك كل الأوصاف السلبية والإيجابية للمحبة في كلمات الرسول (١كور ١٣: ٤ – ٨) تؤكد لنا أن ما لا يمكن أن تفعله المحبة هو قدرة الصليب وقوته، حيث لا حسد، ولا حدة طبعٍ كسرها الرب بالغفران لصالبيه، وتأنيه على عودة بطرس الذي جحده، ولم يطلب منه حتى الاعتذار، بل صفح عنه بسؤال واحد: "هل تحبني أكثر من هؤلاء؟".

وغاية شريعة المحبة هي القيامة؛ لأن القيامة ترياق "الداء الخفي" لا تجعلنا نطلب ما لنفسنا، بل لأن الخلود استقر فينا بالروح القدس لم يعد لنا ألفة مع أي شيء آخر، ولم يعد لنا ينبوع حياة غير تلك التي يعطيها الآب بالابن في الروح القدس، ولذلك قال الرسول، وقد أدرك "قوة القيامة" (فيلبي ٣: ١٠) إن "المحبة لا تطلب ما لنفسها"، فليس لها حقوق تسعى إليها؛ لأن من صار البذل طبيعةً له، لم يعد له اشتياق لأن يطلب شيئاً، بل صار مسكنه هو الابن الوحيد، وفرحه هو أنه في هيكل الروح القدس يعبد الثالوث الواحد في جوهره – أي في محبته – وغير المنقسم.

٥٥– رَسَمَ الرسول أيقونة وجه الله الآب المعلَنة في يسوع المسيح بكلمات نشيد المحبة (١ كور ١٣: ٤ – ٨)، مؤكِّداً لنا أن استعلان الله هو استعلان يفوق الشريعة القديمة، تلك التي أُعطيت على الجبل، وكلمات على الحجر، أمَّا هذه، فقد أُعلِنت في يسوع المسيح ابن الآب ولم تكتب على حجرٍ، بل على القلب (ارميا ٣١: ٣١)، وصارت بقوة الروح القدس لا بقوة الحرف المنقوش على حجر. لذلك – يا ثيئودوروس يا محب المسيح بالحق – علِّم الإخوة أن لا يجعلوا الشريعة، أي شريعة، تعلو

على غاية الشريعة، وهي خلاص الساقطين وتوبة الخطاة؛ لأن غاية الناموس (الشريعة) هي المسيح (رو ١٠: ٤). ولم يأتِ الرب لكي يهلك ويعاقب ويبدد، بل جاء لكي يطلب الهالكين. لذلك إحذَر الناموسيين؛ لأنهم كانوا مع الجمع الذي صرخ "أصلبه أصلبه"، وهؤلاء لا يعرفون أن غاية الشريعة هي خلاص الكل، فلا تجعل لهم وصاية على المبتدئين، ولا تسمح لهم حتى بالتعليم لئلا يغرسوا القساوة والخوف المريض من الله؛ لأن الخوف المقدس هو من فقدان الشركة، أمَّا الخوف المريض فهو خوف العبيد من الحكم ومن الدينونة بسبب الظن أن الله قاسي القلب، متربصٌ بالخطاة، يقف منتظراً خطية واحدة لكي يُسرع بالعقاب.

٥٦- خوف المحبة لا وجود له —كما قال رسول الرب وشاهده (١يوحنا ٤: ١٨)؛ لأن المحبة تطرح الخوف خارجاً، لأن بذرة المحبة التي يغرسها الروح القدس في القلب، تنمو وتدرك صلاح الله، فتترك الخوف مثل رداء قديم يتركه عند باب الرحمة الإلهية.

٥٧- "الخوف له عذاب"؛ لأنه يحاكم الرجاء، ويلقي ظلالاً من الشك في صلاح المحبة، ولذلك هو من بقايا الخطية؛ لأنه من "نواقص" الطبيعة القديمة الآدمية، تلك التي خافت عندما سمعت صوت الله في الجنة (تكوين ٣: ١٠)، ولم تعد قادرة على الألفة لأنها اغتربت عن الشركة.

٥٨- هل يوجد خوف مقدس، ذلك الذي قال عنه الكتاب المقدس: "رأس الحكمة مخافة الله"؟ نعم. يلد الخوف كثيرين، وما أكثر الذين يبدأون بالخوف، لكن الخوف هو طفولة الروح الإنسانية التي تخاف من الدينونة، فتسرع بالتوبة، ولكن الطفل يجب أن ينمو صاعداً نحو تذوق المحبة الإلهية في يسوع المسيح ربنا الذي علَّمنا "حكمة المحبة" لا خوفها. وحقاً قيل: رأس الحكمة ⲁⲣⲭⲏ أي البداية. أمَّا كمال ونضوج الحكمة، فهو في تذوق صلاح الله الذي يعطي ذاته في ملء المحبة لكي نُدرِك – روحياً وسرياً – محبة المسيح الفائقة المعرفة.

٥٩- الذين ولدوا من خوف الدينونة لا يجوز لهم تولي رعاية النفوس بسبب عدم كمال المحبة، ولأن خوف الدينونة يخلق فيهم قساوة قلب مصدرها الرعب من الله؛

إذ يتحول هذا الرعب إلى انتهار وشجب وأحياناً غضب، بل يصل إلى الانتقام؛ لأن المرتعد يريد أن يجعل كل الناس مثله، وعندما يفشل يهجم عليهم ظناً أنه يقرِّبهم من الله.

٦٠- عندما قال الرب بفمه الإلهي: "لا تدينوا"، فقد أعلن لنا سبب عدم اشتراكنا في الدينونة، وكشف لنا عن الفساد القابع في النفس؛ لأنه قال: لأنكم سوف تدانون حسب مقياس الدينونة الذي أخذتموه وعالجتم بهم شركتكم مع الآخرين[١] (راجع مت ٧: ٢)، فكيف ندان أو لماذا ندان حسب مقياس الدينونة الخاص بنا؟

أولاً: لأنه مقياس بلا صلاح ورحمة.

ثانياً: لأنه يولد من الدفاع عن الذات، وهو "جرح" ذلك "الداء الخفي"، أي الموت.

ثالثاً: لأننا بذلك المقياس نفسه وضعنا الله في ميزان القضاء الخاص بنا، وهو ما يجعلنا خارج الشركة تماماً معه ومع محبته الإلهية. فما أعظم العطب الذي نقع فيه؛ إذ عدمت نفوسنا الحس الروحي الصحيح بصلاح الله ورحمته، وأي ميراث نظن أننا سوف نأخذه.

٦١- كل أفعالنا تعود إلينا حاملةً معها إما خيراً وصلاحاً، وإما نقصاً وتراجعاً عن المحبة. أما المحبة فهي لا تعيد إلينا إلَّا الثالوث نفسه؛ لأنه الشركة المثلثة لوجود متبادل بين الأقانيم[٢] *perichoresis* وكل أقنوم يسكن ويحل في الأقنومين دون انفصال أو انقسام؛ لأن حركة المحبة الإلهية هي حركة الطبيعة الفائقة التي لا انقسام فيها، بل هي غالبة الانقسام.

ولأن طبيعة الله هي المحبة؛ لذلك أصبح التمييز بين الطبيعة والجوهر والأقنوم هو تمييز عقلي للفهم لأن الأقنوم هو كيان خاص متمايز بصفة خاصة لا تجعله منفصلاً بل متمايزاً، وعلى سبيل المثال "البنوة" خاصة بالابن، فهي عطاء الآب، وهي شركة الابن في الآب كما هي شركة الآب في الابن، وهي ليست شركة مغلقة أمام الروح القدس، بل

---

(١) ليس هذا نصاً كتابياً بل شرحاً.

(٢) أو الحلول المتبادَل، فكل أقنوم حال في الآخر حسب قول الرب: "أنا حيٌ في الآب والآب فيَّ"، وغيرها من عبارات تؤكد تمايز الأقانيم وحركة حلول متبادَل.

لأن الروح القدس هو "روح الآب"، فهو "ينبثق" ويستقر في الابن، ولذلك وُهِبَ لنا من الآب بواسطة الابن.

٦٢– لكي ندرك عمق المحبة الثالوثية، استخدم الآباء التمييز اللفظي الذي لا يجب أن يقود الفكر إلى تصور كيان منفصل بسبب اختلاف الأسماء – كما فعل أريوس وانوميوس من بعده – لأن اختلاف أسماء الأقانيم: آب وابن وروح قدس هو إعلانٌ عن الحياة الإلهية التي تُثلِّث حسب الإعلان الإلهي، وحسب الحكمة الإلهية، وليس حسب الذكاء والتصور العقلي.

٦٣– الآب هو الينبوع، والابن يولد دائماً من الينبوع لكي يُعلن الينبوع إعلاناً عن محبة خاصة تفوق الإدراك. لأن ولادة الابن الأزلية – التي أنكرها أريوس – هي استعلان المحبة الإلهية التي تتحرك بقوة الحياة لكي تلد ليس من هو أقل، بل من هو "مساوٍ"؛ لأنه مولود من ذات الطبيعة التي ليس فيها عظيم وحقير، أول وثان؛ إذ هي طبيعة واحدة فائقة. هنا كان استخدام كلمة طبيعة ضروري لتأكيد وحدة الآب والابن؛ لأنها وحدة محبة.

٦٤– الروح القدس هو عطية المحبة، والعطية الفائقة χαρισμα ليست جديدة وحديثة، بل هي تُعطى من الآب للابن؛ لأن الروح هو محبة الآب للابن، لذلك "ينبثق" من الآب ويستقر في الابن، وقد أدركنا ذلك من تجسد الإبن ومعموديته؛ لأن الروح المستقر أزلياً في الابن خلق له مكان استقراره فينا، أي الجسد، ثم مسحه بعد خروجه من مياه الأردن معلِناً أنه المسيح ابن الله، وعندما مُسِحَ قال الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" (مت ٣: ١٧). وعندما ظلل الروح القدس الابنَ المتجسد على الجبل قال الآب: "هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا" (لوقا ٩: ٣٥)؛ لأننا سمعنا تعليم الرب أخذنا ذات المجد السماوي.

٦٥– المحبة تعطي ذاتها عطاءً كاملاً، ولذلك المحبة تعطي ولادة الابن وانبثاق الروح القدس، وكلاهما يعطي كيانه كاملاً للآب، كما يعطي الآب كيانه كاملاً للابن والروح القدس، لذلك كانت حكمة الآباء هي استخدام كلمة أقنوم لتمييز العطاء الكامل. فكيف يتناغم هذا مع وحدة الطبيعة التي لا انفصال فيها ولا تقسيم؟ والجواب

سهل على مَن يدرك أن المحبة ليست حركة توحيدية توحِّد، بل حركة طبيعية تعطي، لأن توحيد الأقانيم لا يدل على الانقسام، بل يدل على وحدانية الجوهر أو الطبيعة. فالآب ليس أقنوماً يضاف إلى الطبيعة، ولا هو صادرٌ أو آتٍ من طبيعة، بل هو طبيعة اللاهوت. فليس الثالوث أقانيم ثلاثة تضاف إلى الطبيعة، بل هي أقانيم في الطبيعة الإلهية، أي الآب نفسه. ونحن نؤكد هذا لأن الآب هو ينبوع الابن والروح القدس.

٦٦- فما هو المعلَن من هذه المحبة الخاصة الفائقة؟ والجواب ثلاثة إعلانات:

الأول: هو المحبة الأبوية التي لا تحفظ لنفسها شيئاً، هي فائقة الصلاح تعطي بلا حدود.

ثانياً: ولادة الابن هي ولادة المساوي، فليس في المحبة الإلهية "دونية" (أي ما هو أقل)، بل المساواة تحفظ أيضاً كل كلام عن الخلاص والحياة الأبدية. الآب لا يحب من هو أقل منه لأن الاستعلاء هو خطية الشيطان.

ثالثاً: وانبثاق الروح القدس من الآب لكي يستقر في الابن، هو تأكيدٌ على أن الروح القدس المساوي للآب والابن هو العطية التي يملكها الآب ويعطيها للابن لكي بالولادة الأزلية والانبثاق الأزلي، يظهر الثالوث في محبته التي في جوهره الواحد غير المنقسم. فقد أعلن الآب أنه آبٌ لابنٍ وحيدٍ، ثم أعلن أنه مصدر الروح القدس؛ لأن الروح لا يولد ولكن ينبثق، وكلتا الكلمتين تعبِّران عن تمايز ولادة الابن وانبثاق الروح القدس. الولادةُ معلَنةٌ كولادةٍ؛ لأنها تحدد مصير البشر الذين ينالون بواسطة الابن التبني كعطية من الآب بالابن في الروح القدس.

٦٧- هذه العطية من الثالوث هي هبة، وهي من الينبوع وتُعلَن بالابن، وتُوهَب في الروح القدس. لأن هذه العطية لها ثلاثة مناحي:

الأولى: هي على مثال الابن، أي شركة تبنٍّ.

الثانية: هي روحانية من روح الحياة، روح الآب.

الثالثة: هي ليست خاصة بفرد واحد دون الباقين، بل هي لكل أعضاء الجسد الواحد، أي أعضاء الكنيسة، أعضاء المسيح، ولذلك هي تنقل كلَ ابنٍ نال هذه العطية إلى شركة مع الثالوث وبالثالوث في الكنيسة.

٦٨– تتحرك محبة الثالوث في داخل الحياة الإلهية، فهي تشبه الدائرة رغم أنها ليست دائرة؛ لأن الدائرة مغلقة، أما محبة الثالوث، فهي منفتحة على الخليقة. ومن الآب تُشرق، وبالابن تُعلَن، وبالروح القدس تُعطى.

٦٩– تُشرق مثل فيضان الماء من الينبوع، وتُعلَن مثل انسكاب الماء في وعاء، وتُوهَب لأنها هي التي تقدم نفسها، فلا يتجرَّأ أحدٌ على اختطاف المحبة الإلهية، ولا يتجاسر أحد على أن ينالها باغتصاب.

٧٠– لماذا تتحرك المحبة نحونا حركة ثالوثية؟

أولاً: لأن لها ينبوع وهو الآب.

ثانياً: لأنها معلَنة في يسوع المسيح ابن الآب.

ثالثاً: لأنها تُوهَب بالروح القدس.

ولعل أهم ما يجب أن يُقال، هو أنها محبة شركة وليست محبة فرد واحد، فالفرد يحب كفرد ولا يملك أن يحب محبة شركة إلَّا مع آخر، محبة مغلقة على اثنين لها خصوصية خاصة، وهي اتحاد الاثنين مثل اتحاد الرجل والمرأة، لكن محبة الفرد لفرد آخر – رغم اهميتها – إلَّا أنها محبة مخلوقة لا يوجد فيها تخصص الشركة التي ترتفع فوق الثنائية، وتعلو في العطاء، فلا تغلق الشركة على اثنين، بل تفتح الشركة وتجود على هذا النحو:

أولاً: يحب الآب الابن ويعطي له ذاته، وكذلك يفعل الابن. ولكن هذا العطاء لا يُغلَق أمام هذه المحبة؛ لأن العطاء القاصر على اثنين ليس أقوى من عطاء ثلاثة، ولا هو أفضل رغم جودته وصلاحه الواضح.

ثانياً: عندما يعطي الآب ذاته للابن ويعطي له الآخر الذي هو منه، أي الروح القدس، فهو يجرد ذاته تجريداً كاملاً، ويعطي بالروح ذاته، وبعطاء الروح القدس للابن لا يضيف الآب ثالثاً من الخارج، بل يعطي الثالث الذي منه والمساوي له للابن لكي تكمل دائرة المحبة.

٧١– وعندما نسأل عن سبب ثالوثية المحبة، فإن الجواب هو من الإعلان الإلهي الذي أُعلن في تجسد الرب ومعموديته وتجلِّيه على الجبل. لأنه تجسد من والدة الإله بالروح القدس وبقوة ومسرة الآب، واعتمد من يوحنا ومُسِحَ بالروح القدس، فأعلن

للبشرية "الابن المحبوب".

وتجلى على جبل طابور وظلَّله بالروح القدس، أي السحابة المنيرة، ونادى الآب: "هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا"، وهكذا أعلن التجسدُ بنوةَ الابن الأزلية.

كما أُعلِن الروح القدس سرياً، ولكن الروح أُعلِن بشكل منظور في هيئة الحمامة، فأكَّد الإعلان تمايز الروح عن الابن، وظلَّ الآب مستتراً، ولكنه أُعلِن بالصوت السماوي؛ لأن قلب الإعلان هو الابن، وقوة الإعلان هي الروح القدس، لكن يظل استعلان الآب في الابن بالروح القدس منفتحاً على الزمان الحاضر وعلى الأبدية.

٧٢– في تجسد الابن أُعلِنت عطية البنوة. وفي معموديته أُعلِنت عطية الروح القدس. وفي التجلي ظهر مجد الحياة الآتية، وهو مجدُ محبة الشركة الذي أعلنه الرب عندما جاء ومعه موسى وإيليا، وجَمَعَ معهما التلاميذ الثلاثة في أيقونة الكنيسة، أي أيقونة المحبة.

٧٣– لا يوجد سببٌ للمحبة الإلهية، بينما تتنوع الأسباب لمحبة البشر؛ لذلك لا تسأل عن سبب المحبة التي تجمع؛ لأن الشركة هي حركة دائمة في المحبة، فهي توحِّد بالشركة وبالعطاء.

٧٤– لأننا خُلِقنا على صورة الله ومثاله (تك ١: ٢٦)، فإننا لذلك السبب عينه نبحث في الأسباب والغايات. قبل السقوط كانت الشركة هي الغاية والقصد الذي لأجله خُلقنا، ولم يكن من الصعب علينا أن ندرك غاية الوجود نفسه كاستعلان لمحبة الثالوث، ولكن بعد السقوط وتشتُّت المعرفة وتنوُّع الغايات والأهداف وانقسام المعرفة وانفصالها عن المحبة، أصبح للمعرفة دورٌ يتعارض مع المحبة إلى أن يتم فداء المعرفة بفداء الكيان الإنساني كله. ولكن ملامح فداء المعرفة هي في ثلاثة أمور ظاهرة وثلاثة أمور خفية. والأمور الظاهرة هي:

+ خضوع المعرفة لنقاوة المحبة؛ لأن المحبة ليس لديها اختيارٌ خاص ولا هدف، ولذلك تُخضع المعرفة وتجعل المعرفة نقيةً من الاهتمام بالذات.

+ وتتكون المعرفة في داخل المحبة، وتدرك المعرفة أنها بدون المحبة عقيمة؛ إذ ترتد إلى الذات ساعيةً وراء إرضاء الذات، فتجد الذات قد سلكت طريق "جحد الذات"،

أي طريق الصليب، فتنمو المعرفة في اتجاهٍ آخر مختلف عن الاتجاه الأول أي إرضاء الذات، وبذلك تسعى إلى القضاء بحرية المحبة على كل أشكال الأنانية.

+ تُولد المعرفة الجديدة من المحبة المتجددة فينا بالروح القدس، ولذلك تستنير بقوة النور الإلهي وتصبح هي والمحبة حركةً واحدةً واعيةً بالاستنارة الروحية.

أمَّا ما هو خفيٌ، فهو:

+ صمت المعرفة أمام فخامة ولمعان الأسرار الإلهية والاقتناع بعدم الاقتحام.

+ تخلي المعرفة عن كل ما هو مفهوم ومقبول من أجل المعرفة الأعلى التي تعلو على الإدراك.

+ الاندهاش والذهول الذي يجعل العقل نفسه في حالة احتقار كامل لكل البراهين والنظريات، وهي بداية التسليم الذي يستهين بالشكوك وكل أكاذيب وحيل الشيطان.

٧٥– المحبة توحِّدنا بالله، وتقود المعرفة، وتحدد الاتجاه، أي الإتحاد بالله. وهذه هي علامات شركتنا في الطبيعة الإلهية. ثلاثُ علاماتٍ ظاهرة وثلاثٌ خفيَّة:

+ مَن ذاق محبة الله للخطاة وعَرِفَ كيف يحبه الله في يسوع المسيح، وكيف أن هذه المحبة هي للكل، وهي أيضاً خاصة لكل مؤمن على حدة؛ لأنها انعكاس الإلوهة حيث الجوهر الواحد للثالوث هو شركة الكل ولكل أقنوم كيانه الخاص، كذلك المحبة للكل، الذين يؤمنون وخاصة بكل إنسان على حدة حسب قامته ونموه.

+ وعندما تؤقنِم المحبة كل إنسان على حدة، يُدرِك كل من تأقنم بالمحبة أن هذه الخصوصية تمنعه من أن يكون أي شيء آخر غير أن يكون ابناً، ولا أن يحيا حياة غير حياة التبني. ومَن أدرك حرية الابن، فقد تألَّه، وذلك لأنه ارتفع فوق عبودية الطبيعة الساقطة إلى "حرية مجد أولاد الله" (رو ٨: ٢١)، وهي أول علامات الشركة في اللاهوت.

+ وثان هذه العلامات، هي تقديس النفس والجسد وخضوع الإنسان لعمل الروح القدس الذي يقدِّسه ويجعله "الإناء المختار" للمحبة، فلا يطلب شيئاً لذاته حتى من الثالوث، بل يجعل الشركة هي الغاية والوسيلة معاً لكي يخضع لله الآب كخضوع

الابن الوحيد، وهو "التشبُّه بالمسيح"، الذي عندما نشتاق إليه، ندرك من هذا الشوق الجارف، بل والعنيف أيضاً أن كل شيء يهون، وهي علامة أكيدة على التألُّه.

+ وثالث هذه العلامات هي الاستهانة بكل شيء مهما كان؛ لأن مَن ذاق حلاوة الحياة الأبدية وهو في الجسد، فقد ذاق باكورة ثمار القيامة، وهي علامة أكيدة على الشركة في اللاهوت، أي لاهوت المسيح الغالب.

أمَّا العلامات الخفية وهي الأكيدة فهي:

+ الفرح بالروح القدس.

+ رؤية المجد الأبدي، وهو مجد ربنا يسوع المسيح وتجلي النفس والجسد معاً بالروح القدس.

+ الانسجام (الهرمونيا)[١] مع حركة المحبة في الثالوث نفسه، وهي رؤية الحياة الآتية التي ليس لدينا عنها أي كلام يمكن أن يُقال في الوقت الحاضر.

٧٦- الفرح بالروح القدس هو طريق المصلوب الذي صَلَبَ إرادته قبل تجسده عندما صار "مسرة الآب" و"ابن محبته" (كو ١: ١٣)، وصار الآب هو فرح أقنومه الإلهي، وهو أيضاً فرح الابن المتجسد بالروح القدس الذي أعدَّ له الجسد والنفس الإنسانية في مستودع البتول والدة الإله، فصار فرح الثالوث هو فرح المحبة في تجسُّد الابن الذي "جمع" الإنسانية في أقنومه الإلهي المتجسد، وفيه "سكنت" الطبيعة الإنسانية في الثالوث إلى الأبد سُكنى حياة المجد التي سعى يسوع المسيح ابن الآب كي يثبِّتها لنا فيه.

٧٧- الفرح بالروح القدس هو فرح شركة محبة الثالوث القدوس، هو فرح الآب بالابن، والابن بالآب، والآب والابن بالروح القدس. وفرح الروح القدس بالآب والابن هو فرح كل أقنوم بالآخر، وأول علامات وجود هذا الفرح فينا هو الشوق الجارف للصلاة والوحدة والجلوس في القلاية والانصراف حتى عن النوم والطعام؛ لأن قوة هذا الفرح تجعل الزمان يسير ويمضي ونحن لا نحس به، وهو يأتي إلينا كعطية لا تسعى النفس إليها حتى لا تقع في اقتحام المجال الإلهي وتسقط في الوهم بأنها نالت ما تتصوره بالعقل،

---

(١) الهرمونيا كلمة يونانية قبطية.

وهو غير حادث في حياتها.

٧٨- أمَّا رؤية المجد الأبدي، فهو الاستنارة بالروح القدس الذي يعطي لنا هذه الرؤية، فهي ليست رؤية من الخيال، ولا هي من تأمل العقل، ولا حتى هي من شِبَع القلب بالمحبة الإلهية بل هي عمل الروح القدس، فهي إعلان كامل وتام يضع فيه الروح النور الإلهي في الحياة العقلية لكي تستطيع أن تبصر وترى بهاء مجد الله المتجلي في محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد وشركة الروح القدس.

هذه هي دعائم الإعلان الإلهي للثالوث القدوس، وهي كما نرى، هي بداية التقديس في الخدمة (الليتورجية) الإلهية؛ لأننا برشم الصليب نسمع هذه الكلمات قبل أن ندخل "بحر التقديس"، فهي دعوة المحبة التي تُعطى بالنعمة: محبة الآب ونعمة الابن، ولكن كمال وحقيقة هذه الدعوة هو بالروح القدس الذي يسكن فينا.

سُكنى روحِ المحبة[١]

٧٩- "يحل"، و"يسكن" هما فعلان يعبِّر كل منهما عن عمل الروح القدس؛ لأنه "يحل"، أي يعلن عمله. و"يسكن"، أي يمنح الإنسانية "ختم الثبات الأبدي"؛ لأنه سبق ومسح ناسوت الرب لكي يصبح كل إنسان مدعواً لهذه المسحة.

يسكن فينا روح المحبة (رو ٥: ٥)؛ لأنه يرفع منّا الجهل ويذيب قساوة القلب باستعلان تواضع الآب ومحبته، لأننا نعرف أن تواضع القلب هو بمعاينة الصلاح الإلهي واكتشاف الفقر الروحي الحقيقي، مما يجعل انسحاق النفس أكثر حلاوة من العسل؛ لأن النفس التي تذوق صلاح الله ومحبته للخطاة لا تستطيع أن تدخل حياة الشركة بأي نوع من البِّر، بل بسبب الصلاح الإلهي الذي يعلن محبة الثالوث.

والصلاح هو وجهٌ أبدي لمحبة الثالوث؛ لأن الله صالح ولا يحتاج لأحد ولا يطلب شيئاً من البشر، وهو الغنى الإلهي الذي يعطي بلا سؤال، ويطلب مَن هو بعيد، ويسعى وراء الضال ويشفي النفوس المريضة، ولذلك - من أجل الصلاح - يسكن فينا الروح القدس ملتهباً بأشواق نارية للإنسانية التي سكنت في جوهر الله بسبب تجسد الكلمة ابن الآب الوحيد.

٨٠- والصلاح والرحمة هما معاً لا يمكن فصل أيهما عن الآخر. فالصلاح طلب السامرية، والرحمة أعلنت لها الخلاص والمحبة تقدِّم لها "الماء الحي". هذه ليست صفات تحرك الطبيعة الإلهية، ولكنها أي الطبيعة الإلهية، تعمل بحركة المحبة التي تسكب ذاتها في الخليقة وتعطي الوجود والحياة؛ لأن الله يحتضن الإنسان عند خلقها، ويوحِّدها حسب التدبير ويؤلِّهها حسب النعمة، ويمجدها في الابن بحلول روح قدسه فينا.

---

(١) العنوان من وضع الناسخ نفسه بخط أحمر.

٨١– يسكن فينا روح الآب، وهو روح الابن أيضاً المنبثق من الآب (يوحنا ١٥: ٢٦)، والمعطي لنا في يسوع المسيح "ختم التبني" الذي لا يضمحل؛ لأنه روح المحبة الغالبة التي لا تقوى عليها الخطية، والذي إذا رُفِضَ، تحول إلى نار دينونة، أمَّا إذا سكن فينا، فهو يتحول إلى نار التقديس.

٨٢– إنها سكنى التواضع الإلهي الذي يجعلنا رغم قصورنا، نصرخ فيه وفي يسوع: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤). ونحن نصرخ بالروح القدس؛ لأنه هو الذي يشفع فينا، إذ يقدِّمنا رغم قصورنا كأبناء للآب السماوي بسبب فداء البشر في يسوع المسيح. هذه الصرخة هي صرخة المحبة الأبوية التي فاضت بالتبني، وهي التي بها بذاتها، نتقدس من كل أدناس العبودية.

نار المحبة الخاصة بالبشر[1]

٨٣- نستطيع أن نقول إن المحبة النارية الخاصة التي أعلنها الثالوث هي محبة البشر بشكل فائق؛ لأنها إنعام روحي يفوق الإدراك لم يُعطَ لأيٍ من الرتب السماوية التي لا تعرف إلَّا القليل جداً عن سقوطها وعن علاقتها الخاصة بالله، لكن علينا أن نعترف بكل أمانة أن الله الكلمة لم يأخذ من الرتب السمائية روحاً سمائياً لكي يخلص الملائكة، بل أخذ جسداً بشرياً من والدة الإله مُعلِناً محبته الخاصة للبشر. فقد شهد الإنجيلي يوحنا لسر محبة الله للبشر بالاعتراف بأن الكلمة صار جسداً وسكن فينا نحن البشر عندما تجسد.

٨٤- وهي محبة لا تعرف الانفصال؛ لأن اتحاد اللاهوت بالناسوت هو بلا انفصال، بل لقد جاء هذا الاتحاد لكي يقضي على كل أشكال الانفصال وأسبابها، ويؤسِّس الإتحاد الدائم الأبدي بنا.

٨٥- وهي محبة بلا اختلاط للطبيعتين، إذ لم تفقد كل طبيعة خصائصها، ومع ذلك نالت الطبيعة الأدنى، أي الناسوت مجد الطبيعة الفائقة أي اللاهوت، وذلك لكي يعلِن لنا تجسد ابن الله أن الاتحاد هو تمجيد وتقديس ورفعة للإنسانية التي فقدت رتبتها.

٨٦- وهي محبة بلا امتزاج وبلا تغيير؛ لأن ابن الله رغم أنه أخذ صورة العبد، إلَّا أنه هو نفسه الكلمة لم يصبح عبداً للآب، بل رفع صورة العبد إلى رتبة التبني ومجَّدها. وعلى الرغم من أنه اتحادٌ حقيقي أبدي، إلَّا أنه منذ الاتحاد لم يحوِّل اللاهوت إلى ناسوت ولا الناسوت إلى لاهوت؛ لأن تحول أي منهما يهدم سر تدبير الخلاص، ولكن بقاء الناسوت متَّحداً باللاهوت هو الذي يعطي الناسوت الرتبة الجديدة الخاصة

---

(1) من وضع الناسخ وبذات الخط الأحمر.

بآدم الثاني.

٨٧- محبة البشر النارية تؤسِّس حرارة وقوة الصلاة التي لم يعرفها الشعب القديم، الذي كان يشتكي من احتجاب الله عنه، بل غيابه. لكن شعب العهد الجديد يعرف أن احتجاب الله عنا هو قصور وضعف من جانبنا، وليس من الثالوث نفسه الذي أرسل الابن لكي يعطي المحبة النارية. لذلك صراخ المزامير وسؤال النبي: "لماذا تختفي يا الله في أزمنة الضيق؟" هو سؤالٌ لمن رأى الصليب بروح النبوة كما في مزمور ٢٢ ولكنه لم يذُق الصلب والموت والدفن والقيامة مع الرب في سر المعمودية. ومَن مُسِحَ ملكاً على إسرائيل ولكنه لم يمسح بالميرون الإلهي. ولذلك عندما نرتل هذه المزامير علينا أن نتذكر أن قاعدة الصلاة الأولى هي "تدبير تجسد الرب الابن الكلمة" الذي جاء إلينا واحتجب في الناسوت ولم يحتجب عنا. هو لا يتركنا، ولكن بقايا حياتنا القديمة وعجزنا عن فهم محبته للبشر، يجعلنا نظن أن الرب يفارقنا، ولكنه وعدنا بحلول وسكنى الروح القدس فينا إلى الأبد، لأنه الروح "المعزِّي" المدافع عن الإنسانية ضد كل قوى الشر في عالم الظلمة، والشفيع لدى الآب الذي يضم البشر لكي يقدمهم لله الآب.

إعلانات محبة البشر للرب يسوع المسيح[١]

٨٨- يدخل بيت زكا الذي يكرهه أهل قريته؛ لأنه يجمع منهم الضرائب. والرب لا يحب مَن يحبهم البشر ويكره الذين نكرههم، بل يحب الجميع بلا تمييز.

٨٩- ينكر عليه بطرس أن يُصلَب ويموت، بل وينتهر الرب يسوع (مرقس ٨: ٣٢)، وينتهره الرب يسوع ويقول له إن رفض الصليب يجعل بطرس مع الشيطان، ولكن رغم ذلك لا يطرد الرب بطرس، بل يتأنَّ عليه وينذره بأنه سوف يسقط في خطية الجحد، ولكن رغم سقوطه لا يُظهِر الرب شماتة البشر، ولا يوبِّخ تلميذه، ولكن يسأله إن كان يحبه ويعيده إلى خدمة الإنجيل رغم عثرات بطرس.

بل حتى بعد الامتلاء من الروح القدس، يتردد بطرس في الذهاب إلى الكرازة بين الأمم، ويرسل له الرب الإنذار بالرؤيا حسب شهادة الأعمال (أعمال الرسل ١٠: ١٣)، ويظل التردد في ضمير بطرس حتى وهو في انطاكية، ويفرز نفسه من الأكل مع الأمم (غلا ٢: ١٢)، ولكنه يظل - مع ذلك - محبوباً لأن الرب يقول لكل الذين سقطوا في التردد: "ها أنا واقف على الباب وأقرع إن فتح لي أحد أدخل وأتعشى معه" (رؤ ٣: ٢٨).

٩٠- ويدعو الرب شاول الطرسوسي مضطهِد الكنيسة الذي كان يسوق تلاميذ الرب لإنكار الإيمان، بل ويطردهم، ويحول هذه الغيرة إلى غيرة على الإنجيل؛ لأنه محب البشر الذي قيل عنه: "قصبةً مرضوضةً لا يكسر وفتيلة مدخنة لا يطفئ"، بل يعيد إليها النار لكي تنير، لذلك أقول أنا الخاطئ إن كنت فتيلة مدخنة وبردت محبتك للرب، فلا تجعل يأس الخطية يسود عليك، بل أطلب محبة الرب لكي تشتعل في قلبك من

---

(١) أيضاً من وضع الناسخ.

جديد، وتصبح ليس فتيلةً مدخنةً، بل قبساً من نار محبته.

٩١- أمَّا ابني الرعد "بوانرجس"، فقد رفض الرب أن تنزل ناراً من السماء لتحرق "السامريين" الذين رفضوا بشارة الإنجيل، ولكنه قَبِلَهما رغم غباوة الإدراك والعجز عن فهم "روح يسوع". وعندما قال الرب: "من أي روح أنتما؟"، فقد أعلن عدم انتماء هؤلاء إلى روح المحبة، ولكنه مع ذلك لم يطردهما، بل تركهما ينموان معاً لكي يخدمان الإنجيل.

٩٢- من الصعب علينا أن نشرح المحبة الإلهية للبشر لمِن لم يعرف المحبة، ولذلك كانت بداية البشارة هي بالتوبة (تغيير اتجاه الحياة) وتذوُّق المغفرة؛ لأن مَن ذاق حلاوة المغفرة، ذاق أول قطرات ينبوع المحبة. هكذا دخل شاول الطرسوسي في شبكة الإنجيل، فقد اصطاده الرب بعتاب المحبة الذي مزَّق سد الكراهية، وأعاده إلى صوابه. ولذلك وضع الرب بنفسه الطلبة الخاصة بالغفران في الصلاة (الربانية)؛ لكي ندرك أنه لا غفران بلا محبة، ولا محبة بلا غفران. ومع ذلك، **فالغفران هو أدنى أعمال المحبة، أمَّا أعظم أعمال المحبة، فهي الشركة في حياة الثالوث حيث يسكب الآب حياته في ابنه لكي تعطى بالروح القدس**.

٩٣- إن محبة البشر النارية، تراها معلَنةً في معجزات الشفاء، وفي دعوة الذين لا مكان لهم في حياة الناس، وهم أعظم عند الله؛ لأن هؤلاء لم تزدحم قلوبهم بالعالم، بل طُرِدوا منه عنوةً، فوجدوا الله.

٩٤- لتكن صلواتنا بمحبة، وحتى تلك التي تمارَس بتغصُّبٍ، فإنها تغرس في القلب شجاعة وثقة في محبة الله. وعندما يراقب الروح القدس السعي الحثيث نحو الآب، فإنه يضع فينا ثقةً بمراحم الله. والتغصُّب يعلِّمنا نحن حقيقةً ثابتةً، وهي أن قدرتنا ونشاطنا ومثابرتنا ليس هو باب ملكوت السموات، بل هو في الحقيقة الدرس الذي نتعلم منه أن الميراث السماوي هو عطية الآب؛ لأن مثابرتنا مثل أمواج البحر تعلو وتهبط، ولكن المحبة النارية الثابتة هي محبة الله الذي "يعطي بسخاء ولا يعيِّر"؛ لأنه لا يفتخر بالعطاء ولا يفتخر بالمرة، ولذلك قال الرسول: "مَن أراد أن يفتخر فليفتخر بالرب"، أي أن يلتصق بمن لا يفتخر؛ لكي يتعلم صلاح الله ومحبته الفائقة.

٩٥- تأمَّل درجات المحبة للبشر. فقد كان ولا زال اتحاد اللاهوت بالناسوت هو دعوة الله الآب العليا أن نتحد به بيسوع المسيح ابنه. فالإتحاد هو غاية المحبة، وهي القصر الملوكي الذي ندخله في يسوع المسيح لكي يكون لنا فيه ميراثٌ أبديٌ. أمَّا ما هو قبل الميراث الأبدي، فهو خاص بالزمان الحاضر، ولذلك كل ما نأخذه من عطايا - مهما كانت - لا تقارَن بعطية الحياة الأبدية التي تبدأ بالمعمودية وهي رسم ⲧⲩⲡⲟⲥ التبني؛ لأننا لا نفتخر إلَّا بالبنوة، وهي ليست منَّا، بل من الذي لا يفتخر وهو الله.

المحبة توحِّد[١]

٩٦- عندما تذكر الأسفار المقدسة، ويؤكد ذلك الرب يسوع أن الحياة الأبدية هي معرفة الله الآب والرب يسوع المسيح، فإننا يجب أن نكون على يقين أن هذه هي معرفة محبة الله الآب الذي دعانا أن نكون "أولاده" كما يقول الإنجيلي يوحنا.

والمعرفة النابعة من المحبة تُوحِّد الألفاظ وتنسق معانيها ولا تفصل بينها، ولذلك لا يوجد فصل بين المحبة والحياة الأبدية والتبني؛ لأن الحياة الأبدية هي محبة تحفظ كل واحد منا ليس كعبد، بل كابن، وتعطي لنا معاً، فلا يمكن فصل المعرفة عن الحياة الأبدية، ولا الحياة الأبدية عن التبني؛ لأن المحبة لا تجعلنا أبناء للآب في هذا الزمان فقط، بل هي المحبة الأبدية والبنوة الأبدية، وهي أيضاً ليست بنوة بلا حياة كما أنها ليست حياة بلا معرفة.

ولذلك علينا أن نرى المحبة الأبدية – المعرفة – البنوة كقوى الثالوث القدوس الخاصة بكل أقنوم وبالجوهر الإلهي نفسه؛ لأن ابن الله هو ابن محبة الآب، وهو مُعلِن الآب لنا، وهو واهب حياته التي هي حياة أبدية، بل إنَّ كل هذا لا ينفصل عن "القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب" (عب ١٢: ١٤)؛ لأن القداسة ليست فضيلة، بل هي شركتنا في قداسة الله، وهي الشركة التي تجعلنا "بلا لوم أمامه" (أف ١: ٤) ليس بسبب كمال أو مثابرة، بل بانسكاب عطية الروح القدس فينا التي تحوِّلنا إلى هذه القداسة عينها.

٩٧- أيها المحبوب ثيئودوروس، لقد طال الكلام وثقُلت الكتابة، والمحبة ليست كلاماً، بل هي قوام الحياة الإلهية للثالوث.

---

(١) عنوان من وضع المترجم.

الآب يحب الابن وترك له كل شيء خاص بخلاصنا وتجديدنا؛ لكي بظهور الابن، ندرك عطية التبني المعلَنة فيه. وهو سبب تجسد الرب يسوع المسيح الذي جاء لكي يردنا – كأبناء – للآب.

والابن يحب الآب، ولذلك يقول للآب: "هانذا والأولاد الذين أعطاني إياهم الآب" (راجع عب ٢: ١٣)، بل هو الفادي الذي يعرف قصور وضعف كل واحد منّا، ومع ذلك، فهو "لا يستحي أن يدعونا اخوته" (عب ٢: ١١)؛ لأنه مثل الطبيب الذي جاء لكي يداوي جراح الإنسانية، فهو لا يستحي من كل جراح الخطية، ولذلك علينا أن نعترف له بجرح برودة المحبة فينا وتقاعسنا عن الاشتعال بذات المحبة النارية التي يسكبها الروح الناري العظيم؛ **لكي بهذه النار نطلب ليلاً ونهاراً أن لا يكون لدينا أعز من المسيح**، وأن تهون كل الصعاب، **وأن يكون لنا صبر القديسين، بل "صبر يسوع المسيح نفسه"؛ لأن صبر المحبة لا يعرف اليأس ولا الحياء ولا يقف عند حدود، بل هو قوة المثابرة التي تدفعنا إلى أن نترك كل شيء لكي نرى كمال المواعيد الإلهية التي أُعلِنَت في يسوع المسيح.**

٩٨– لتكن شركتنا في السر العظيم – جسد الرب ودمه، شركة محبة، أي لنقبل الرب بذات المحبة التي أحبنا هو بها وهي محبة حتى الموت موت الصليب، وأن نفضِّل الموت على أي إغراء وأن نقف ثابتين في محبتنا.

ليكن المذبح هو "الخدر" الذي فيه تتحد النفس والجسد بيسوع المسيح، وأن يصبح كل قداس (حرفياً ليتورجية) هو عيدنا الكبير الذي نعيِّد فيه باتحادنا بالرب يسوع المسيح ثابتين في محبتنا، وأن نترك كل شيء لأجل هذه المحبة.

٩٩– لا تنسى يا ثيئودوروس علامة المحبة الإلهية، أي ختم الصليب المحيي؛ لأنه هو إمضاء المحب يسوع المسيح الذي بدمه وقَّع ليس وثيقة حريتنا، بل العهد الأبدي بدمه؛ لأنه راعي الخراف الذي قام بدم العهد الأبدي (عب ١٣: ٢٠)، مؤكِّداً لنا أن القيامة هي قوة الصليب؛ لأن الرب بمحبته هزم الموت وغلبه على الصليب.

لنختم (نرشم) ذواتنا بعلامة المحبة، وعندما نختم رشم الصليب بقولنا: "والروح القدس"، ليكن معروفاً لنا أننا بقوة الروح القدس نعود إلى علامة العهد الأبدي، وختم

محبة ربنا يسوع المسيح الله الآب الذي يغرسه فينا الروح القدس.

١٠٠– أخيراً. أتوسل إلى اله المراحم أن ننمو معاً في محبة الله بشفاء نفوسنا من الإفراط في محبة الذات، وأن لا تتحول محبة الله فينا إلى شهوة نطلبها، بل إلى منهج حياة؛ لأن النمو في المحبة مصدره النمو في النعمة، والنمو في النعمة مصدره اتحادنا بالروح القدس، وهو وحده الذي يفتح لنا حياةً جديدةً في شركة كاملة أبدية ومحبة أبدية.

صفرونيوس يطلب صلواتكم عني. الرب يسوع المسيح معكم.